القديس أنبا يعقوب

المجاهد التائب

القمص بيشوى عبد المسيح

يوسف حبيب

مقدمة

هذا الكتاب

عثرنا على هذه القصة فى بادىء الأمر بمخطوطة بدير السريان العامر . ولكن المخطوطة لم تذكر سوى الناحية القصصية دون تحديد تاريخى دقيق ، وبعد تحقيق وبحث داما مدة طويلة عثرنا على أصل تاريخى للقصة . فوجدنا هذه القصة فى سنكسار الكنيسة القبطية مختصرة جداً وكانت نهايتها ناقصة فلم يذكر شيئاً عن سقطة القديس وتوبته . ولكن ذلك ذكر فى سنكسار رينيه باسيه الذى ذكر حياته بأكثر تفصيل خاصة من الأول عما ذكرته المخطوطة .

أخيراً عثرنا فى كتاب « قديسو مصر - أوليرى » على القرن والمكان الذين عاشا فيهما القديس، وفى النهاية حاولنا ربط القصة فى هذه الصورة التى بين يديك أيها القارىء العزيز .

† † †

هذه القصة

هى قصة لأحد آباء البرية القديسين توضح حياة التوبة بالنسبة لقديس سقط ! ولكن هذه القصة توضح لنا . . .

توبة القديسين

مثل كل توبة تحتاج إلى بداية من جديد فى طريق الرب باتضاع وانسحاق وندم ودموع ، وينبغى أن نعلم أن كل انسان معرض للسقوط لا فرق بين قديس وغير قديس لأن التحصن ضد السقوط هو فقط فى الالتصاق بالرب ، وفى الإلتحاف بعونته إن كنا نطلبها بلجاجة واحتياج .

ولكن إن كنا قد سقطنا فيجب أن نعلم :

أولا - الرجوع فرحة

أن التوبة حزن وألم وبكاء . . . فكيف يؤول هذا الحزن إلى فرح . . . ؟!

من الطبيعى إذا أخطأ عبد إلى سيده فإنه يحزن خوفاً من سيده ولا يبقى حزن بعد معرفته بصفح سيده (ولكنى لا أعود أسميكم عبيداً) (يو ١٥ : ١٥) . فتعال معى يا أخى لنتعلم كيف نحزن على خطايانا كأبناء . . . إن حزن الإبن يكون شديداً حتى

بعد صفح الأب لا سيما وإن كانت علاقة هذا الإبن قوية بأبيه قبل سقوطه (كما سنرى فى توبة الأب يعقوب) .

الأب يصفح عن ابنه حتى ولو كان مايزال بعيداً ... ولكن عواطف الابن تبقى متأثرة ووجهه مخزياً - ثم فهو يحسب ماصنعه أمام أبيه الذى يحبه شيئاً كثيراً ، لذلك يظل قلبه ينطق بأخطأت. لست مستحقاً أن أدعى لك إبنا » . لو (١٥ : ١٨ ، ١٩) .

يالله من عجب ! فى الوقت الذى يبكى فيه هذا الابن يكون الأب ناسياً ماصنعه ولا يعود يذكر خطاياه أبداً . الأب مبتهج بعودة ابنه اليه لكن الإبن لا يكف عن الندم والحزن والخجل فى حضرة أبيه ! ! ؟

لذلك فالابن يبكى ويحزن لا لتغفر خطاياه أو ليعفى من قصاص بل لأنه يعلم أنه جرح عواطف أبيه الحب فليس بعجيب إن كان ندمه وحزنه يستمران طويلا . . ! !

هو يحزن ولكن حزنه فى الرجاء لأنه يعلم أن بنوته لم تمح أبداً.

وأنت يا أخى لماذا تتوب توبة الأجراء . . . ؟

لا تقبل ياأخى صليباً بدون يسوع - لأن الصليب بدون يسوع غير محتمل وكذا الحزن بلا رجاء !

وإن يسوع من أجل السرور الموضوع أمامه إحتمل الخزى مستهيناً بالعار . . . فالذى يشجعنا على إحتمال الحزن هو الرجاء الموضوع أمامنا .

ثانيا - الغرض من الشعور بضعفنا

لايقصد الكتاب المقدس من اشعارنا بضعفنا الشخصى وتحذيرنا من عدونا وتخويفنا من الخطية إلا أن يعلمنا فقط : أن سر قوتنا وخلاصنا هما من الرب الذى منه المعونة فلا نكف عن طلبها فهو المحارب عنا والمنتصر فينا فلا ننفصل بشعورنا ببرنا الذاتى عنه . فليس المقصود من شعورنا بضعفنا بالنسبة لابليس أن نرتعب منه بل أن نحذر منه فنحن نستطيع بقوة الله أن نسحقه تحت أقدامنا ، ولا يطلب منا أن نخاف من الخطية إلا لكى نسهر ونلح فى طلب معونة الله ونهرب من الشر .

لنحذر شيطان السكاكة

للخطية تأثيرات مختلفة على النفس فقد تؤدى إلى أن تغمض عيوننا عن نعمة الإنجيل وقوة خلاص ربنا وعمق محبته لنا فنجد القديس يعقوب بعدما أخطأ احتاج إلى من يكشف عن عينيه ثانية تلك الأمور .

وإن كان الله أحيانا يسمح من أجل كبرياء فينا أن نسقط

فى بعض الخطايا بطبيعتنا كما سقط هذا القديس لكن ينبغى أن نحذر من يسقط من شيطان الكآبة الذى يعقب السقوط ، فهو يحارب الساقطين لكى يأسوا ويتركوا طريق الرب أو يخيبوا من نعمته .

لا تستمع إلى تعييرات عدونا ولا تتركه يشمت بك مادمت فى طريق الرب بل « ليرجع إلى الوراء وليرتد إلى خلف جميع الذين يبغضون لى الشر » .

« لانه من هو هذا الفلسطينى الأغلف حتى يعير صفوف الله الحى » ! (١ صم ١٧ : ٢٦) كيف تيأس وأنت فى طريق الرب ؟ وإن أردت أن تطمئن تعال وانظر :

عمق محبة الله

ان الانسان الشرير لا يستطيع أن يقبل « الله محبة » لانه لا يشعر أن الله يحبه مع أن هذا الشعور كفيل بأن يرجعه الى الله وكثيرا ما يرمينا عدونا بالشعور بعدم محبة الله لنا ربما لاجل كثرة آثامنا وشدة شعورنا بخطايانا لكى يبعد عن قلوبنا رغبة الله الأكيدة فى خلاصنا وانتظاره وفرحه برجوعنا هو ذا الشيطان يهمه أن يملأ نفوسنا بالكآبة إلى الدرجة التى ينسينا فيها محبة الله العجيبة لنا فيصور لنا صدره الحنون المتسع مخيفاً وضيقاً بل مغلقاً

مع أن الرب نفسه ارتضى أن يدعى محباً للمشارين والخطاة ! ـ هوذا الرب نفسه يرد بقسوة على إبنى زبدى (لست أعرف من أى روح أنتما) (لو ٩ : ٥٥) لانهما تكلما بمثل هذه الروح على أهل السامرة . ألا يكفى أن نعلم أنه أحبنا ونحن بعد خطاة ؟

اذن لا ينبغى ان نفصل ذواتنا عن محبة الله بهذه الكيفية أو أن تشغل خطايانا ـ مهما كانت كثرتها ـ كل تفكيرنا بل بالحرى محبة الله لان هذا الشعور الأخير يرمينا فى حضنه المفتوح على الصليب من أجلنا . فالله لا يهمه أن نوهم أنفسنا بخطايا هذا مقـــدارها لان ذلك ليس غرض الله من التوبة بل بالحرى أن تنشغل بمحبته فهو القائل « أحب الرب إلهك من كل قلبك وكل فكرك وكل قدرتك » .

انه حسن أن أبكى على خطاياى وأحزن عليها ولكن ينبغى ان أعلم أن خطاياى هذه مهما كانت لاتستطيع أن تمنع محبة يسوع لى أو تمنعنى عن محبته فليست الخطية أقوى من المحبة ! !

أخيراً يا أخى ينبغى أن تعلم أن التوبة لغة الله المحب العطوف على البشرية الساقطة يفهمها كل الذين يستجيبون لمحبته فيرجعون

إليه والوقت يقبلهم ويصفح عن آثامهم ويفسى تعدياتهم بل يعيدهم إلى رتبتهم الأولى . . .

فلا عجب ان العالم لا يمكن أن يقبل مالروح المسيح لأن العالم لا يصفح عن أخطأوا إليه وكذلك أبناء هذا الدهر .

لكن أولاد الله يغفرون لمن يسيئون إليهم ولو كان ذلك إلى سبعين مرة سبع مرات لذلك فالتوبة هى أيضاً لغة أولاد الله الذين لهم صورة أبيهم السماوى .

† † †

الفصل الأول

القديس المجاهد [1]

« معونتى من عند أرب »

مز ١٢٠

(١) راهب قديس عاش فى القرن الرابع الميلادى بمنطقة نتريا .

١ ـ القديس فى نتريا

يحدثنا بلاديوس (أكبر مؤرخ كتب عن سير آباء القرن الرابع الذى عاش فيه) فيقول : « هناك فى نتريا قضيت زهاء ثلاث سنوات قابلت فيها مايربو على الالفين من أعاظم الرجال القديسين الذين عاشوا هناك . إمتازوا بمعرفتهم الروحية وفضائلهم الكثيرة وعاش كل راهب المعيشة التى تلائمه ، إما بمفرده أو فى جماعة . وألحق بكنيسة الدير منزل خاص بإقامة الغرباء ، أما الذين يرغبون فى الإقامة مدة طويلة بالدير فكانوا يطالبون فى العمل والخدمة كما يسمح لهم بالمطالعة فى أوقات الراحة . وفى وقت المساء كانوا يستيقظون على أصوات التماجيد والمزامير والصلوات التى كانوا يرفعونها باستمرار حتى كان يخيل للانسان أن عقله خطف إلى جنة عدن . . . »

وفى نضرة هذا الفردوس الأرضى عاش هذا الراهب المجاهد

أنبا يعقوب وانفرد متوحداً فى مغارته التى أقام بها حوالى خمسة عشر عاماً (لايعرف تاريخ رهبنته على وجه الدقة) ـ أجهد نفسه فيها بالأصوام والصلوات المستمرة وتعلم كيف يعيش لله فقط ولا عجب فهذا القديس كان قد هرب من المعيشة فى العالم منذ حداثة سنة ، ويقال أنه انفرد فى حياة الوحدة منذ بداية رهبنته وظل فى عزلته طيلة هذه المدة لم يدخل فيها المدينة قط .

٢ ـ جمال حياته الأولى

كان هذا القديس محباً للوحدة والسكون ولكن كانت هناك دوافع فى نفسه تدعوه لخدمة الغرباء ، ولبث على ما يبدو متردداً بين الاتجاهين ، ولكنه استقر أخيراً فى الوحدة يقطع شوطاً طويلا فى حياة الفضيلة والجهاد حتى سما إلى درجة عالية ، وكان يتسم بجرأته فى الحياة الروحية وقوته فى عزمه وجديته . ظل هذا القديس يواصل جهاده من يوم إلى يوم فى حياة سرية مع الله ، لا يعلم به أحد من الناس ، الا أن رائحة الحياة الزكية لابد أن تفوح ، والله الذى لن يكف عن أن يتمجد فى قديسيه ويكرمهم أراد أن يعلن بره . . .

مرة جاء أحد الأشخاص إلى نتريا لكى يستشفى من مرضه إذ كان شيطان يعذبه ، وفى الطريق وهو مار بقلاية هذا القديس، صرخ الشيطان ولم يدع الرجل يعبر ، وأخيراً خرج منه بصوت مرعب وفى غيظ شديد ، وفى الغد لما وصل هذا الرجل إلى البيعة المقدسة ولم يكن يعلم سر ما حدث لكنه لما حدث الآباء الرهبان عن قصته عرفوا السر . . ! لأن المريض كان قد عبر بقلاية القديس يعقوب .

ذاعت هذه القصة بسرعة بين سكان نتريا والحال إلتف حوله كثيرون ممن بهم أمراض فكان يشفيهم بقوة الله . وقد حباه الله موهبة إخراج الأرواح الشريرة [1] . ولو أن هذا أدى إلى انقلاب المغارة من الوحدة والسكون إلى مكان للزائرين ، إلا أن القديس لم يخرج عن سكونه وجمال عبادته مع الله بل صار زائروه سبباً لتعزيته ، وكان يصلى لجميع الآتين له . وازدادت نعمة الله للقديس فى صنع العجائب والمعجزات وكان لذلك أثر

(1) قال رب المجد : لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم ولكن بالحرى أفرحوا لأن اسماءكم قد كتبت فى ملكوت السموات .

حتى على زائرين من الوثنيين وكان يجتذب الكثيرين منهم إلى المسيح ويرسلهم الى البيعة المقدسة لكى يعمدوا باسم الثالوث الأقدس واستمر فى عمله هذا حتى ضجرت منه الشياطين وأرادت أن ترعبه ...

٣ - الشياطين تحاربه

«مصارعتنا ليست مع لحم ودم بل مع الرؤساء مع سلاطين . . . مع أجناد الشر الروحية فى السماويات» .

أف ٦ : ١٢ .

ظهر له مرة الشيطان بهيئة جسمية وقال له : «يايعقوب قد ضجرت الى الغاية لانك تخرجنى من كل موضع لى ، أفلقت راحتى ولم تتركنى أستريح ساعة واحدة . . . .» ، ولما أبصره القديس عرفه وقال له لوقته : «ماهى قدرتك أنت حتى تقف أمام الرهبان وتزعجهم ؟ والتفت اليه القديس بقوة ورفع عكازه الذى كان موسوماً بعلامة الصليب وضرب الشيطان على رأسه ثلاث ضربات منتهراً إياه وقائلا : «الرب يسوع المسيح يبعدك عنا أيها الشرير الطاغى يا ابن الهلاك» فخاف الشيطان العدو وهرب . . .

٤ - حيلة ابليس الأولى

كثر زوار القديس الذين أتو ليستشفوا من أمراضهم أو يطلبوا بركاته وصلاته وكان يعزيهم ويعزيهم ، فأراد عدو كل بر أن يستغل هذه الفرصة لكى ينـــدس فى الوسط حسب عادته بالنسبة لكل عمل صالح .

حدث أن إحتال عليه قوم أشرار فجعلوا امرأة خاطئة تتزين وأتت إليه ودخلت إلى المغارة لعلها تقربه بالخطيئة ، ولكن البار كان مازال فى نضارته الروحية فكلمها بكلام الحياة بقوة وكانت كلماته مؤثرة كالسيف الحاد حتى ارتعدت المرأة ولمحت على وجهه نعمة لم ترها فى أحد من البشر من قبل فانطبعت هذه الصورة فى نفسها واشتاقت إلى التوبة والمعيشة على مثال هذا القديس ، لذلك صرخت بدموع وندم فأرسلها القديس الى أحـــد القديسين المشهورين فى المنطقة لكى يتقبل منها الاعتراف .

† † †

الفصل الثانى

القديس الساقط

لماذا أسلك كئيباً من مضايقة عدوى .. . أرسل نورك وحقك فإنهما يهديانى ويصعدانى الى جبلك المقدس إلى مسكنك تجاه وجه الرب الذى يفرح شبابى .

† † †

لماذا أنت حزينة يانفسى ولماذا تزعجينى . توكلى على الله فإنى أعترف له . خلاص وجهى هو إلهى .

من ٤٠ .

١ - الشعور بالقوة

أول درجات السقوط

بعد أيام ليست كثيرة جاء الشيطان مرة ثانية وقال له :
« يايعقوب يايعقوب قد ضربتك ثلاث ضربات ممكن أن تداوى ولكنى سأضربك ثلاثاً يعسر شفاؤها » ، ويبدو أن القديس كان قد إستهان بقوة أعدائه فلم يعد يهتم كما يجب باليقظة الروحية ولم يداوم على الملجاة فى طلب المعونة من الله ، والتفت القديس إلى العدو وصرخ فى وجهه وانتهره فتركه العدو الى حين . . .

٢ - حيلة ابليس الثانية

اشتهر أمر القديس وبلغت معجزات عمل نعمة الله فيه كل أحد بما فى ذلك السلاطين والولاة وظل طوال هذه المدة لم يحرق عدو الخير أن يقترب منه جهاراً ، وإن كان قطعاً لم يكف عن محاربته سراً ثم عاد الشيطان إليه مرة أخرى ليجربه - وحيل عدونا دقيقة ومصائده خفية وشراكه منصوبة - وذلك بأن دخل فى ابنة والى ذلك الإقليم ولم يكن لأبيها سواها فلما صرعها الشيطان أحضر لها أبوها الأطباء وهؤلاء أجهدوا أنفسهم

واستخدموا كل حكمتهم فى علاجها ولكنهم لم يفلحوا ، ولم يكن نصيب المنجمين بأحسن حال من الأطباء الذين استحضرهم والدها بل بالعكس إزداد صرعها فأصبح والدها فى حيرة شديدة ، وإذ تعب جداً قال له أحد عظمائه : « دامت لنا سعادتك يا مولاى ، قد عجز هؤلاء عن شفاء ابنتك ، فإن كان رأى مولاى أن تحمل هذه الإبنة إلى الرجل الساكن بهذه المنطقة المدعو يعقوب الراهب فربما يكون شفاؤها ببركة صلواته ، فقد شفى كثيرين » ، فتنفس الأب المتحير ، الذى كان يتلهف إلى أى مشورة الصعداء وقال لهم « أسرعوا على اسم إله هذا الراهب بتنفيذ المشورة . فحملوا الصبية فى اكرام ومضوا بها إلى حيث كان أنبا يعقوب . . . وفى الطريق ما كادوا يقتربون من قلايته حتى هرب الشيطان منها وهو يقول : اللهيب ! اللهيب ! ما أطيق أبصر وجه هذا القديس . تعجب الرجال جداً لما حدث وحملوا الصبية سالمة إلى أبيها وفى تلك الأثناء رجع أحدهم وقص ما جرى على القديس وأعطاه بعض الهدايا من السلطان فرفض أن يتقبلها وباركه .

لكن الأمر لم يدم طويلا حتى رجع إلى الصبية الروح النجس ثانية مما اضطر الرجال إلى أن يحملوها إلى القديس . . . ولما مثلت بين يدى القديس هرب الشيطان منها . ولكنهم لما حملوها

إلى والدها رجع إليها الروح النجس أيضاً وتكرر الأمر عدة مرات فأخبروا والدها بذلك فتعجب وتحير جداً ولم يجد أمامه إلا أن يرتب لها خداماً لخدمتها وأن يضعونها على مقربة من قلاية القديس الذى لما سمع رفض فى بادىء الأمر رفضاً باتاً غير أنه تردد وقبل أخيراً خاصة لما أرسل إليه والدها السلطان رسالة يستعطفه ويترجاه . . . إلى أن دخلت الصبية قلاية القديس ! !

كان حالما يدخلونها باب القلاية يهرب الروح النجس منها ولكنه يرجع إليها بمجرد خروجها من القلاية، وبتكرار العملية عدة مرات أصبح من السهل اقناع القديس أن تبقى داخل قلايته بصفة مستمرة ، فكانوا يحضرون لهـــا الطعام والشراب داخل القـــلاية .

(أن تبقى فتاة داخل قلاية أحد الرهبان أمر خطير ، انها لا شك حيلة شيطانية) .

٣ ـ كل قتلاها أقوياء

أم ٧ : ٢٦ .

مرت الأيام والإبنة راقدة فى أحد جوانب القلاية ، ولما كان يوم من الأيام أراد عدو كل بر أن ينتقم من القديس الذى كان غارقاً فى أفكار كثيرة عن قوته ومجده الروحيين ولم يفكر فى حاجة الناس الشديدة إليه حتى أتوا بهذه الإبنة فى قلايته وقد سببت له هذه الأمور نوعاً من الاسترخاء الروحى مما جعله فاتراً فى طلب معونة الله بقوة ، فخاطبه إبليس بنفس المنطق السابق ـ منطق التهاون (١) .

(١) ان من أهم عوامل سقطة الانسان هو أن يتكاسل فى محاربة أسباب الخطية لأن ذلك يولد فيه التهاون وعدم اليقظة . وعندما يكسل فى طلب المعونة من الله بالحاجة يسقط بالتأكيد ، لذلك يحذرنا الكتاب أنهروا... أهربوا من الشر ومن كل شبه شر ، ويعلمنا القديس مكاريوس الكبير بأن الرب جعل كل مقاومة الشيطان فى حدود استطاعة إرادة الانسان وحريته ولكن لم يعط الانسان قوة كاملة يستطيع بها أن يسيطر على كل انفعالاته النفسية وشهواته ، ولذلك يصدق القول . . . ان لم يبن الرب البيت فباطلا تعب البانين . . . (مز ١٢٧ : ١) .

فلا تعجب ! من سقطة هذا القديس لأننا مهما بلغنا من القداسة فسوف لا ننتصر أبداً بقوتنا الشخصية ، وهذا هو سر حاجتنا الملحة الى التضرع والسهر والصلاة كل حين بالحاجة .

٤ - سقطة القديس

« أذن من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط »

١ كو ١٠ : ١٢

استسلم المسكين لأفكاره ووقع فى صراع مرير وكلما مر وقت كان يرجع إلى الوراء فتفتر عزيمته وأخيراً سقط .

٥ - خطية تقود إلى خطية

يقول القديس يوحنا الدرجى : « بعد أن نكون سقطنا فى هفوة فلنحارب بالأخص شيطان الحزن والكآبة » . ويكمل القديس غريغوريوس : « لأن من يقطع رجاءه فإنه يقتل نفسه ، ولا تتركوا لأجل هذا طريق الرب بل أثبتوا بالحرى بشجاعة ونشاط فى خدمته » .

ظل القديس فى سقطته وجاءه شيطان اليأس الذى يعقب السقوط ، وملأ عقله بأفكار كثيرة . فقال له « بعد أيام قليلة سيظهر عليها الحمل ، يا ويلك سوف يظهر أمرك ... ماذا ستعمل... أنت أبصر . . .

انه بالتأكيد سوف يأتى أصحابها ليفتقدوها ولابد أن يقتلوك ، الأفضل لك ان تصنع هذه المشورة - أن تقوم وتقتلها.

فنهض القديس على الصبية وقتلها وجرى مسرعاً وحمل جسدها وطمره فى الرمل .

٦ - تغيير العدو له

ظهر له إبليس فى صورة أحد غلمان الملك الذين جاءوا ليفتقدوا الصبية كالعادة ولما لم يجدها استخبر عنها من الراهب ، فما كان من القديس الا أن كذب فأعلمه أنها خرجت من عنده وصرعها الشيطان وهامت على وجهها حتى أفترسها وحش ردىء وقتلها فدفنتها - فقال له ذلك الرجل المتشبه بالخدام يا راهب أخاف أن الملك يطلبك ، لذلك أريدك أن تحلف لى فحلف له ، فلما حلف صرح له الشيطان بذاته وقال له حينئذ بصوت السخرية « يايعقوب يايعقوب أين طهارتك ؟ أين قداستك ؟ أين صلاتك؟ أين قوتك ؟ وازعاجك لى ؟ وتخرجنى من بيتى كل حين ، وقد ظننت أنك ضربتنى ثلاث ضربات سهلة الدواء . أبصر هذه الثلاث ضربات العسرة الدواء ! ! » .

† † †

يالالأسف الزائد والحزن المبرح ! من يستطيع أن يكشف عن حالة هذا الرجل ، وكم كان مقدار حزن نفسه التي صعقت فقد كان قلبه كالبحيرة الملتهبة بجمرات النـــدم فصار قلبه كالآنية المكسورة والمسحوقة كالرماد ، فالما سمع هذه الكلمات من عدوه انكشفت عن عينيه غمامة الخطية حتى لطم وجهه وترك باب الفلاية مفتوحا وخرج هائماً على وجهه بلا عكاز تائهاً يندب نفسه بالويل والعويل . . .

† † †

الفصل الثالث

القديس التائب

« الرب يقيم الساقطين . . . »

مز ١٤٥

كأب حقيق تعبت معي أنا الذي سقطت

« من قداس القديس غريغوريوس »

« لا تشمتي بي ياعدوتي فإني إن سقطت أقوم » .

ميخا ٧ : ٨ .

١ ـ عناية الله بالقديس

« سعيت فى طلب الضال »

القداس الإلهى

ترك القديس القلاية وفى قلبه أن يرجع إلى العالم ويترك رهبنته لأنه يئس نتيجة سقطاته . . . ولكن الله الذى لا يشاء موت الخاطىء والذى قال أنه لا يقدر أحد أن يخطف خرافه من يده لم يهن عليه أن يترك هذا القديس يهلك . فأرسل إليه راهب قديس قابله فى الطريق ، فلما رآه كئيباً سأله أن يعرفه ما عرض له ، فلما أعلمه كشف عن عينيه نعمة إنجيل المسيح وعزاه وشدد قلبه وأخيراً أمره أن يداوم على الصوم و الصلاة وترك لنعمة المسيح ومضى ، وكان هذا بعد أيام قليلة من سقطته .

٢ ـ ندمه وانكساره

كان القديس صائماً لم يفطر من وقت سقطته بل كان يبكى وينتحب بدموع غزيرة جارية كأنها المطر المنهمر ، ثم بقى تائهاً فى تلك الجبال والبرارى يجتاز الصحارى والأودية ، ولا يستظل من الشمس بالنهار ولا يستتر بالليل من الصقيع ، بل كان يتعذب

وهو ينتحب ويلطم وجهه وصدره دائماً وظل هكذا سائراً ستة أيام أكل من عشب البرية ، وبعد تمام هذه المدة وجد طافوساً خرباً (مقبرة خربة) كانوا يدفنون فيه الموتى فدخل فيه وبسط يديه لكى يصلى فلم يستطع . . .

٣ ـ توبته وصلاته

ظل القديس يجاهد فى الطافوس لكى يصلى وأخيراً رفع يديه وهو منكسر القلب وانسكبت نفسه فى عبرات كثيرة وصرخ قائلا : « أرحمنى يارب ثم أرحمنى ، أنظر يا رب إلىّ ، أنا هو الحزين ، أنا هو الشقى ، أنا هو الخاطىء بالحقيقة ـ قد أخطأت يا رب أرحمنى واظهر فى كل صلاحك ليتمجب الخاطئون ويرجعون إليك .

آه أيها الرب أفرح بى كما ذكرت فى إنجيلك المقدس أنك تفرح بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة .

نعم يا رب بهذه الحيلة أخذنى العدو واستولى علىّ ، أرحمنى يا رب ثم أرحمنى أنا هو الشقى بالحقيقة ، أنا هو الحزين بالحق ـ أرحمنى يا ربى وإلهى يسوع المسيح أنا هو المخدوع المسكين ، أنا

هو الذى لى خمسون سنة أخزن وأضع فى المخازن وفى ساعة واحدة ضيعت جميع ما خزنته ، أنا هو الضعيف البائس الذى لى خمسون سنة أجمع وفى طرفة عين بددت الجميع.

أى عين رديئة أستطيع يا سيدى أن أرفعها نحو السماء ؟ لا تطرحنى يا رب قدام وجهـــك . الويل لى وعلىّ يا رب ثم الويل - فى نهار واحد قد أكلت جميع الخطايا ، وبلى ثم وبلى أيها المسيح إلهى ، زنيت وقتلت وكذبت وحلفت فى نهار واحد . الويل ثم الويل الأعظم لى يا رب ، أنا تركتك يا رب فسقطت هكذا . . . أرحمنى يا صاحب معادن الرحمة والنعمة والحياة ، أرحمنى يا رب أنا الذى أهلكت الجسد الطاهر وقتلته ، والآن فى التراب ذفته ، أرحمنى يا رب ثم أرحمنى . . .

داود يا رب الذى دعوته حسب قلبك وكان مستغنياً عن الفجور سقط وزل ولكن ليس كمثل زلتى يا رب ، كما قلت فى إنجيلك المقدس ، ان زانية طلبتك فخلصتها فارحمنى يا رب ثم أرحمنى . سامحنى يا رب برحمتك ، لا تنظر يا رب إلى خطاياى ولا تجعل يا رب الأرض أن تفتح فاها وتبتلعنى لأجـــل عظم خطاياى لا يارب ، لا تصرف وجهك عنى ولا عن دعوتى وصراخى الصاعد إليك من قلب محترق وبائس ، أنا أعلم يا رب أن لسانى

نجس وعينى مملوءة إثمـــاً ويداى ملطخة بثلوث الدم الطاهر بغير ذنب ولا خطية . أرحمنى يا رب ولا تأمر النار فتنزل من السماء وتحرقنى . . .

وصار يبكى والدموع تنزل من عينيه كسيل لون الدم غزيرة كالمطر ، ويقال ان العشب نبت تحت قدميه من الدموع وصار طعامه من ذلك العشب . وكان واقفاً على قدميه بين عظام الأموات وإذ أزعجه قلق الندم كان ينعس يســـيراً ثم ينهض ويبسط يديه إلى السماء ويصرخ بأعلى صوته أسمعنى يا رب وارحمنى كعظيم رحمتك . . .

وأقام هكذا حوالى سبعة عشر عاماً .

† † †

الفصل السابع

تعزيات الله للقديس

« حولت نوحي إلى فرح لي ،
مزقت مسحي ومنطقتي سروراً » .
مز ٢٩ .

« ... لأن رحمتك أمام عيني هي ... »
مز ٢٥ .

أرجعه إلى رتبته الأولى ...

حدث بعد هذه الأيام أن خربت البلاد التي كانت محيطة بتلك المقبرة وصارت مجاعة عظيمة فيها . فرأى أسقف تلك المدينة في رؤيا الليل شخصاً يقول له : « إن كنت تريد أن تنزل رحمة الله على الأرض وتمتلىء الأرض نعمة ، إمضِ إلى رجل يقال له يعقوب المجاهد في ذلك القبر الخرب ، وعندما يطلب هذا من الله تجيء الرحمة ، وهذه علامه له على غفران خطاياه » ، فلما سمع الأسقف ذلك في منامه استيقظ برغبة شديدة وخرج لوقته هو وجماعته ثم مضوا إلى ذلك المدفن فوجدوا القديس فيه قد صار كالشيخ . ولما دخل إليه الأب الأسقف أخذ بركته وطلب منه أن يصلي لكي تأتي مراحم الله ، وما أن سمع يعقوب هذا الكلام حتى لطم وجهه وهو يبكي ويقول ويلي يا أبي من هو أنا الخاطىء الزاني القاتل الخائف ، أبعد الآن عني واطلب غيري ، ثم رفع عينيه إلى السماء وقال « ألحقني يا رب يا سيدي ولا تفضحني فإنهم يحسبونني كما كنت أولا قبل أن أسقط في خطاياي السمجة ، لا تفضحني يا رب بين يدي خليقتك ولا تخجلني بين يدي عبيدك ، واجعلني من أصحاب الساعة الحادية عشرة ، أرحمني يا رب » .

فأمسك الأب الأسقف بيديه وأخرجه إلى خارج القبر وقال له من أجل محبة الله أرحم هذا العالم واطلب من المسيح ليرحم عبيده فقال : دعنى يا أبى لأننى ما أقدر أرفع عينى إلى السماء لأجل خطاياى . . .

وبعد خطاب طويل رفع عينيه إلى السماء وبسط يديه إلى خالقه وقال ليكن كرحمتك ولا كخطاياى، وحيث تكون رحمتك لا مكان لأثر الخطية . أسألك يا رب بصلاة هذا الأب الأسقف أن ترحم يا رب هؤلاء الأطفال الذين لم يخطئوا إليك ولم يعرفوا خيراً ولا شراً . ولم يتمم هذا الكلام إلا وانفتحت ميازيب السماء وأقبل الرعد والعواصف ثم انهمر الغيث .

أخيراً أخذ الشعب بركة هذا الأب وكانوا يأتون إليه دائماً.

وظل القديس ملازماً تلك المقبرة عشر سنوات أخرى ، وكان الشعب يزوره ، وكانوا يجدونه دائماً باكياً مستديماً بالله جل اسمه إلى أن نيح الله نفس القديس واستراح .

وتعيد الكنيسة له فى اليوم الثالث من بؤونه المبارك .

بركة صلاته تكون معنا ولربنا المجد دائماً أبدياً آمين ؟

† † †

مراجع الكتاب

١ ـ مخطوطة رقم ٢٨٠ دير السريان .

٢ ـ كتاب « قديسو مصر » د . أوليرى .

٣ ـ السنكسار المستعمل فى الكنيسة .

٤ ـ سنكسار ريئيه باسيه .

٥ ـ أديرة وادى النطرون « ايفلين هوايت » .

† † †